"في التسليم للعترة الاطهار"

# أسلوبيّة المعنى في الخطاب العلوي
# كتاب العهد مثالا

# Stylistics of Content in the ʿAlawi Dicourse
# Al-ʿAhad as a Nonpareil


الأستاذ الدكتور عباس علي الفحام
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

Prof.Dry. `Abbas Ali Al-Faham Dean of the College of Education for Women University of Kufa



خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

الملخص:

شرعت الدراسة في محاولتها الجادة من أجل البحث في اختيار عهد الإمام لمالك الأشتر لتكون رؤيةً جديدةً تتمحور من داخل اللغة إلى خارجها أي من المعنى إلى الشكل ، إذ تزعم دراستنا أن جدة المعنى وعمقه أساس في إبداع شكله وليس العكس؛ لما شكّله الخطاب العلوي من علامةٍ فارقةٍ في دراسة الإبداع النثري في وقت مبكر من ظهور الفكر الإسلامي، فكان ما جمع في نهج البلاغة واختياراته محط تأمل وتدبر إلى يوم الناس هذا، ولاسيما في النصوص الرفيعة العالية الفصاحة، لذلك انطلقت هذه الدراسة تبني فكرتها على أساس نص أمير المؤمنين في نهج البلاغة في عهده على وجه الخصوص، كونه يحمل فكرًا جديدًا، فالمعنى وسم بعمقه وجدته في كلامه عليه السلام ، ولم تبن هنة في أدائه ولم يتأزم أو يضيق على الرغم من أنه كان في أعمه مما اختص به الفكر القرآني الجديد ، ومن هنا جاء العنوان ( أسلوبية المعنى في الخطاب العلويّ ) ، عادّا تلك سمة اختصّ بها الإمام علي عليه السلام، لتشتمل دراستنا مظاهر الأسلوبية وتحدد بثلاث هي: الاتساع والتكثيف، والابتكار، وقد تنوعت مصادر الدراسة من مختلف المشارب الأدبية والتاريخية بحسب ما اقتضاه المقام

**Abstract**

The Alwite discourse comes to the fore as a study on the prose creativity at the earliest rise of Islam. What is gleaned in the Road of Eloquence inspires all. So the current study takes hold Malik Al-Ashtar Covenant to adopt a vision focusing on the language، from internal to external، that is to say، from content to form. As the content is regarded more important and essential than form and not vice versa، in particular، the texts of sublimity. The text of the commander of the believers ، Imam Ali Ibnabitalib (Peace be upon him) ، is a splendid epitome of content that surpasses all ages ،serves all people to the moment and come in line with the Quranic studies of modernity. Thus the Stylistics of Content in the `Alawi Discourse celebrates the seal of the imam in three isles : expansion، concentration and invention and the researcher depends on the explication of the Road of Eloquence for Ibn Abialhadeed and verified by Mohammad Abi Al-Fadhil Ibrahim. In so doing the diversity of source is achieved in respect of such a stance.

المقدمة

شكل الخطاب العلوي علامة فارقة في دراسة الإبداع النثري في وقت مبكر من ظهور الفكر الإسلامي ، فكان ما جمع في نهج البلاغة واختياراته محط تأمل وتدبر إلى يوم الناس هذا، وما هذه الدراسة إلا محاولة جادة للبحث في اختيار عهد الإمام لمالك الأشتر لتكون رؤية جديدة تتمحور من داخل اللغة إلى خارجها أي من المعنى إلى الشكل ، فهذه الدراسة تزعم أن جدة المعنى وعمقه أساس في إبداع شكله وليس العكس، ولاسيما في النصوص الرفيعة العالية الفصاحة؛ لذلك انطلقت هذه الدراسة تبني فكرتها على أساس نص أمير المؤمنين(عليه السلام) في نهج البلاغة في عهده على وجه الخصوص، كونه يحمل فكرا جديدا، فالمعنى وسم بعمقه وجدته في كلامه عليه السلام ، ولم تبن هنة في أدائه ولم يتأزم أو يضيق على الرغم من أنه كان في أعمه مما اختص به الفكر القرآني، ومن هنا جاء العنوان ( أسلوبية المعنى في الخطاب العلويّ ) ، عادّا تلك سمة اختصّ بها الإمام علي عليه السلام، وقد اشتملت خطة الدراسة على تمهيد عرض لأسلوبية المعنى، ثم درست مظاهر هذه الأسلوبية وتحدد بثلاث هي: الاتساع والتكثيف، والابتكار. وقد اعتمدت في إخراج النص العلوي على شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. وقد تنوعت مصادر الدراسة من مختلف المشارب الأدبية والتاريخية بحسب ما اقتضاه المقام، وانتهى البحث بجملة من النتائج المحددة التي توصل إليها الباحث.

## التمهيد

إبداع المعنى إبداع الصياغة

لا ريب في أن الإتيان بالمعاني الجديدة في النصوص الرفيعة أدعى إلى الإتيان بابتكار صياغتها ، والنأي عن تكرار الصيغ الجاهزة التي ملأت الشعر والنثر معا، حتى أصبح تفاوت المبدعين في القدرة على ما يضيفون وينقصون من الصياغات بعد أن تقرر أن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها الخاص والعام[١]، حتى أمسى تكرار المعاني وصياغاتها أمرا محبذا والخروج عليها خروجًا على عمود الشعر، وكل من يحاول بديعا في القول وجدة فيه يُرمَى بالتمرد على قوانين الشعر كما هو الحال من أبي نؤاس والمتنبي وأبي تمام.

وقد يعسر المعنى على المبدعين فيتأزم أحيانا في القصيدة ويضيق في سعة البيت الواحد كقول المتنبي مادحا سيف الدولة [٢]:

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب  يرى كلّ ما فيها – وحاشاك – فانيا

فالمتنبي عرف هنا بفضل فطنته أن المعنى تأزم عنده وضاق حين قرَّر أن جميع من في الدنيا سيفنى، بمن فيهم الممدوح، إلا أنه أخرجه بانفلات بارع من أسر التأزم منفسحا لنفسه بلفظة واحدة بقوله ( حاشاك ) التي أخرج سيف الدولة من شبهة الذم فيما لو بقيت. ومن الطريف أن جملة (حاشاك) تسمى اعتراضية وأن حذفها لا يضر بالمعنى فتأمل!! . وقد نلاحظ ضيق الشاعر بمعانيه أحيانا بقوة بدئه فيها ثم انحساره عن فضائها إلى زاوية ضيقة حرجة لا تليق ببدء انفساحه في صدر بيته، كقول الجواهري[٣]:

أنا حتفهم ألج البيوت عليهم  أغري الوليد بقتلهم والحاجبا

فأين معنى عجز البيت وضيقه من فضاء صدره وسعته!.

نعم، أؤكد أن المعنى الجديد أدعى إلى تخير الصياغة الجديدة، مثلما أقرر أن ذلك صعب مستصعب، ذُكِر أنّ عبد الله بن الزبير دخل يوما على معاوية فقال له: ((اسمعْ أبياتا قلتُهُنّ – وكان واجدا عليه – فقال معاوية :هات ، فأنشده :

إذا أنت لم تنصفْ أخاك وجدته  على طرف الهجران إن كان يعقلُ

ويركبُ حدَّ السيف من أن تضيمه  إذا لم يكنْ عن شفرة السيف مزحلُ

فقال معاوية : لقد شعرت بعدنا يا أبا بكر ، ثم لم ينشب معاوية أنْ دخل عليه معن بن أوس المزني ، فقال له: أقلت بعدنا شيئا ؟ قال نعم ، وأنشده:

لَعمرُك ما أدري وإنّي لأوجلُ  على أيّنا تعدو المنيةُ أولُ

حتى صار إلى الأبيات التي أنشدها ابن الزبير ، فقال له معاوية : يا أبا بكر ، أما ذكرت آنفا أن هذا الشعر لك ؟ فقال : أنا أصلحت المعاني وهو ألّف الشعر . وهو بعد ظئري، فما قال من شئ فهو لي . وكان عبد الله بن الزبير مسترضعا في مزينة)) [٤].إذن المعاني البكر تقود صاحبها إلى ابتكار صياغاتها وتأديتها.

أمّا علي بن ابي طالب عليه السلام فهو أمير البيان ورائد التجديد ، ملكاته ومواهبه وسعة اطلاعه وعمق ذوبانه في معاني القرآن الكريم والتصاقه وملازمته بابن عمه مكّنه ذلك كله من الإتيان بما لم يُسمع من قبلُ من معان وصياغات فكلامه ((هو الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي )) [٥] ،

وهو بعدُ ربانيّ هذه الأمة وإمام الأئمة وحكيم العرب[٦]. ليس ثمة موضع من نهج البلاغة في خطبه ورسائله وحكمه معنى متأزم ولا ضاقت بأدائه ألفاظه إطلاقا، الألفاظ حاضرة بين يديه يحيلها بفكره فيعيد تركيبها بما شاء من تقديم معنى غائص أو غامض من معان غاية في العمق والجدة، مثل معاني الغيب والتوحيد والعالم الآخر وتشريح الحيوان وخلق الإنسان والسماء والأرض والحديث عن الجبال والأنهار .الصياغات كلها متأتية من خضم معانيها ومنبثقة من رحمها، ليس ثمة انفصال ولا نبوّ ولا استكراه معنى على لفظ، على الرغم من تقصده في استعمال أشكال المجاز والتنغيمات الصوتية المختلفة، وهو تقصد استوجبته الدلالات واقتضته الحال. فمن تمكُّنه من المعنى مثلا مدحه للدنيا على كثرة ذمّه لها في قوله لمن اتكأ على ذم الدنيا: ((إنّ الدنيا دارُ صدقٍ لمن صَدَقَها ، ودارُ عافيةٍ لَمَنْ فَهِم عنها ، ودارُ غِنى لمن تزود منها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها . مسجد أحباء الله ، ومُصلّى ملائكةِ الله ، ومَهبط وحيِ الله ، ومتجر أولياء الله))[٧] ،فهذا الأمر كما علّق عليه الشريف الرضي ((ينبئ عن اقتداره ( عليه السلام ) على ما يريد من المعاني ، لان كلامه كله في ذم الدنيا ، وهو الان يمدحها ، وهو صادق في ذاك وفى هذا ، وقد جاء عن النبي ( صلى الله عليه وآله ) كلام يتضمن مدح الدنيا أو قريبا من المدح ، وهو قوله ( عليه السلام) : « الدنيا حلوة خضرة ، فمن أخذها بحقها بورك له فيها ))[٨].ولطالما لفت الرضي الانتباه إلى المعاني الجديدة وأبدى انبهاره منها في كثير من مواضع كلام الإمام كقوله عليه السلام من خطبة طويلة في التحذير والموعظة: ((..ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ، ودللتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الامل ، فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غدا ))[٩] فقال الشريف الرضي: ((إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا

الكلام .وكفى به قاطعا لعلائق الآمال ، وقادحا زناد الاتعاظ والانزجار . ومن أعجبه قوله ع : « ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ، والسبقة الجنة والغاية النار« ، فإن فيه مع فخامة اللفظ ، وعظم قدر المعنى ، وصادق التمثيل وواقع التشبيه ، سرا عجيبا ، ومعنى لطيفا ، وهو قوله ع « والسبقة الجنة والغاية النار « ، فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ، ولم يقل السبقة النار كما قال : « السبقة الجنة « لان الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب وغرض مطلوب ، وهذه صفة الجنة ، وليس هذا المعنى موجودا في النار ، نعوذ بالله منها ! فلم يجز أن يقول : « والسبقة النار « بل قال : « والغاية النار « ، لان الغاية قد ينتهى إليها من لا يسره الانتهاء إليها ..))[١٠]، وما أريد أن أصل إليه من هذا كله هو أن المعنى قد يعبر عن الإبداع وليس الشكل ، لأن جدة المعنى تقود إلى جدة التركيب عند الفصحاء وأهل الإبانة الذين قادهم في عالم البيان أمير البلاغة علي عليه السلام ، ومن هنا سأبحث في محاور أسلوبية المعنى التي قادته إلى الفرادة في الصياغة .

أسلوبية المعاني

أسلوبية المعاني سمة ظاهرة نجدها حاضرةً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام على نحوٍ عام ومنها في عهده البديع لمالك الأشتر حين ولاه مصر على نحو خاصّ، مكن عمقها وجدتها من توليد تشكيلات تركيبية بنائية لغوية وبيانية غاية في الإبداع والسبق ، ويمكن تحديد مظاهرها بما يأتي :

أولا: الاتساع

سيبدو هذا المصطلح في البحث مرتبطا بالدلالة أكثر منه بالشكل، فأنا هنا لا أعني به

المجاز كما هو شائع، لأني سأعرضه منطلقا من داخل اللغة إلى خارجها، عادا المعنى هو الأصل في تشكُّل البنى المادية، ومؤكدا أن الأشكال اللغوية التركيبية المختلفة النحوية منها والبيانية هي نتاج طبيعي من المعنى. فالاتساع أعني به الانفلات من ضيق المعنى إلى فضاء أوسع ، مستثمرا أدوات التركيب المختلفة لذلك ، فهو يمكن أن يكون تفريعا على أصل المعنى وتوليدا لجذره، مثلما أنه ربط محكم لسياقات مختلفة من تدرج المعاني يأخذ بعضه بحجزة بعض ، وتلك ميزة واضحة في أدب الإمام علي عليه السلام في خطبه ورسائله وحكمه ، ففي كلامه تمكُّن بيِّن من قيادة المعنى والإحاطة به ، فمهما طال وتمطّى لا يمكن أن ينفلت منه ، إنه أحيانا يضع الأصل مُصدِّرا به كلامه ثم يعمد إلى تفصيله وتفريعه مستقصيا لأجزائه ملما لأبعاده، ففي كلامه سياحة بعيدة في المعاني أصولا وفروعا. وفي الكتاب الشهير الذي سلّمه الإمام بيده إلى عامله مالك بن الحارث شيخ بني مذحج الملقب بالأشتر شواهد لتأكيد ما زعمنا، فلو رسمنا الطريقة التي تتحرك بها الدلالات فيه لأمكننا تحديد الشكل الآتي لها:

الأصل : تفريعه : تفصيل التفريع : الإشارة إلى الأصل : ثم العودة إليه

وهو في ذلك كله لا يتأزم المعنى لديه على الإطلاق ولا يضيق ، ولا تختنق به الألفاظ التي تؤديه ، مستعملا أشكال الاتساع التركيبية جميعها من مجاز وتكثير .

قال عليه السلام في صدر كلامه من عهده الجامع:

هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر : (( جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها)) [١١] هذه هي الأصول الأربعة التي صدر بها كتابه، وهي في حقيقة الأمر

جامعة مانعة لا غنى لأي دولة عصرية عنها في بناء دساتيرها :

بناء الاقتصاد ٢- بناء الجيش ٣- البناء الاجتماعي والأخلاقي ( العقد الاجتماعي) ٤- العمران والخدمات

هذه الجذور الأربعة سيتسع فيها الإمام مفصلا ومستقصيا، وهو فيها سيبدو مهما ابتعد عنها سيشير إليها، ثم يرجع إلى التذكير بها، من غير أن نرى استطرادا مخلا ولا إطنابا زائدا عن المعنى ، لأن اتساعه وتكثيره هذا حاجة تطلبها عمق الفكرة التي هو فيها ، ولذلك ستبدو اللغة أيضا في غاية الإشراق والبيان لأنها لصيقة بمعانيها تطلّبتْها موجبات المعاني واقتضتها خبايا الأفكار . ومن هنا ستكون حتى المعاني الخارجة عن هذه الأصول الأربعة التي صدَّر بها العهد خادمة لهذا الغرض صابّة في محيطه، ولذلك أُردِفتْ بكلام مباشر لحامل العهد ((أمره بتقوى الله وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به في كتابه : من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحات ، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله)) [١٢] . والمتدبر لدلالات هذه البنى يجد أن الدعاء ليس من أجل حامل العهد الذي يستحق - ولا ريب - جدارة هذا التشريف ، ولكنه دعاء عام يخدم الأهداف الكبرى الأربعة التي تنبني بها الدولة وهي هنا ( مصر ) ، فحامل العهد هو هنا حاكم سيؤتمن على تنفيذ ما أُبين في صدر الكتاب.

ومثل ذلك قوله مختصرا ثم مفصلا:

((واعلم أن الرعية طبقات ، لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ))[١٣] ففصّل في طبقات الرعية فقال(( فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة ، وكل قد سمى الله له سهمه ، ووضع على حده وفريضته في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهدا منه عندنا محفوظا))[١٤] ثم فصّل فيما ذكر من هذه الأصناف فقال(( فالجنود بإذن الله حصون الرعية وزين الولاة ، وعز الدين ، وسبل الامن وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم ، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب ، لما يحكمون من المعاقد ، ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ، ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات ، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ، مما لا يبلغه رفق غيرهم))[١٥] .ثم عرج على تفصيل ما ذكر من صنف مهم من الرعية فقال(( ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة ، الذين يحق رفدهم ومعونتهم وفي الله لكل سعة .. ))[١٦] .وهكذا تمضي المعاني في تصوير مفصل لحالات المجتمع وأصنافه بقدرة بيانية لا تضيق معها الألفاظ ولا تختنق بها جملها البتة ، يذكر العنوان العام الجامع ثم يشرع بتفريعه فرعا فرعا باستقصاء شامل لا يفلت منه معنى ، وهكذا يطوف على الباقي من عموم ما ذكر من كتابه عليه السلام من غير معاضلة ولا تعقيد ولا ضياع لقرائن الأخبار وتتمات الجمل المفتتحة بمبتدآت على الرغم من كثافة المعاني وتفرعاتها .

ثانيا: التكثيف

التكثيف هو ضغط المعنى من دون إخلال، وهو بتفصيل آخر يعني ثمة معنى متسع توجبت بلاغة الحال الإحاطة به، ثم حصره بتشكيل مختصر، وتكثيفه ببنى قصيرة قد لا تعدو ألفاظه أصابع اليد الواحدة. وتبدو الحاجة إليه أمرا متعلقا بمعرفة المنشيء لعمق معانيه، مثلما تبدو بتقديره لمقام سامعيه، وموقفه الفني الذي هو عليه، فهو ليس ترفا بيانيا أو استعراضا لغويا بقدر إلحاح الحاجة المعنوية إليه.

وهذا الأسلوب صعب المنال على غير أمير المؤمنين عليه السلام الذي أبان في كلامه إمكانا عجيبا من قيادة اللغة ومسك زمامها[١٧]، ولتكثيف المعنى وسائله وأظهرها الايجاز، والايجاز تضييق بالألفاظ لواسع كبير من المعاني. ومن الفصحاء من قرن البلاغة بالإيجاز، فهو يعني القدرة على استحضار كم هائل من المعاني ثم ضغطها وتقديمها بألفاظ يسيرة معدودة. وهو في كلام الإمام علي عليه السلام من أظهر السمات التي ميّزته من غيره من فصحاء عصره وخطبائهم. وهو في عهده لمالك الأشتر ذهبت تشكيلاته موجزة الألفاظ الزاخرة المعاني مذهب الأمثال و منها:

ما يتعلق بشخص مالك:

وضع الإمام أمام مالك جملة عريضة من المعاني شاخصة حية فيما يتعلق ببناء الشخصية الحاكمة الخادمة، غير المتسلطة، مستعملا طاقاته البيانية الفريدة لذلك، ومنها هذه الانتقاءات [١٨]:

وأشعِرْ قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم . ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق ..

ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدي لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته . ولا تندمن على عفو ، ولا تبجحن بعقوبة ، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة ولا تقولن إني مؤمر آمر فأطاع .

إياك ومساماة الله في عظمته.

أطلق عن الناس عقدة كل حقد. واقطع عنك سبب كل وتر . وتغاب عن كل ما لا يضح لك ، ولا تعجلن إلى تصديق ساع فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين.

والصق بأهل الورع والصدق ، ثم رضهم على أن لا يطروك.

ومن تكثيف المعاني ما يتعلق ببناء الدولة ، ومنها هذه الاختيارات[١٩]:

فالجنود بإذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين ، وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم .

وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد .

..فإن هذا الدين قد كان أسيرا في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى ، وتطلب به الدنيا.

ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارا، ولا تولهم محاباة وأثرة.

ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد.

.. فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم .

وليكن البيع بيعا سمحا ، بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع.

إن سر الفرادة في التعبيرات العلوية نابع من طبيعة الشكل ومدى انطباقه على مضمونه أو بعبارة ثانية من قدرة تشكل المعاني ببنى مادية، فكلما كانت المعاني فريدة كانت أشكالها تحمل الفرادة ذاتها، ففي الحقيقة في إبداع لغة الإمام علي يبدو المعنى هو الذي من يعبر عن الإبداع لأنه هو يصنع شكله.

إن في داخل كل تشكيل من هذه التشكيلات التركيبية الآنفة جملة عريضة من المعاني المكثفة ، تصلح أن تكون كتبا تبنى بها مجتمعات ويصلح بها إنسان، ومنها يبدو سر حياة هذا العهد، لِما يتضمن من معانٍ حية تواكب الأزمان وتغذّي الإنسانية في حاضرها ومستقبلها.

ثالثا: الابتكار

قال الجاحظ في إبداع الشعر((..والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ والبدويّ والقرويّ والمدنيّ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ .. وإنما الشعر صناعة، ضرب من النسج وجنس من التصوير ))[٢٠]، ولا ريب في أنه يعني المعاني المكرورة والعامة، فهي التي وصفت بأنها ( مطروحة) وأنها يتقاسم معرفتها العربي وغير العربي، إذ هي ليست خاصة به، ولذلك أكد أن العبرة في الصياغة والتصوير. ولكن حين يكون الكلام عن ابتكار المعاني وجِدّتُها فالأمر مختلف تماما، فالمعاني الجديدة في النصوص العالية البلاغة هي التي تصنع الشكل الجديد، والمبتكرة هي التي تصنع الصياغة المبتكرة، وهكذا نجد خلاصة الأمر في أن المعنى هو الذي يخلق الإبداع بصناعته للشكل المميز، طالما أن الأخير هو من تصنيعه ونتاجه. ومن هنا نقرر أن فرائد الصياغات في كلام الإمام علي عليه السلام وقعت بفضل تمكُّنه من ابتكار المعاني التي قادت إلى صياغات جديدة انطبقت عليها في تأديتها وإبلاغها

للمتلقين سامعين أو قارئين فيما بعد. والشواهد التي تؤيد مزعمنا هذا نهج البلاغة كله، بما فيه كتاب العهد لمالك الأشتر .فعلى سبيل المثال جاءت فرادة التشكيل في قوله((فإنا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائع لنا)) [٢١] من عمق فكر جديد ((فهذا كلام عظيم ، عال على الكلام ، ومعناه عال على المعاني ، وصنيعة الملك من يصطنعه الملك ويرفع قدره . يقول : ليس لأحد من البشر علينا نعمة ، بل الله تعالى هو الذي أنعم علينا ، فليس بيننا وبينه واسطة ، والناس بأسرهم صنائعنا ، فنحن الواسطة بينهم وبين الله تعالى ، وهذا مقام جليل ظاهره ما سمعت ، وباطنه أنهم عبيد الله ، وأن الناس عبيدهم)) [٢٢] . وذكر ابن أبي الحديد – شارح نهج البلاغة– في تعليقه على خطبة الإمام في معاني الملائكة وتفصيل الكلام فيها فقال((هذا موضع المثل : ( إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ) [٢٣]! إذا جاء هذا الكلام الرباني ، واللفظ القدسي ، بطلت فصاحة العرب ، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه ، نسبة التراب إلى النضار الخالص ، ولو فرضنا أن العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة ، أو المقاربة لهذه الألفاظ ، من أين لهم المادة التي عبرت هذه الألفاظ عنها ، ومن أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضة السمائية ، ليتهيأ لها التعبير عنها ! أما الجاهلية فإنهم إنما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش ، أو ثور فلاة ، أو صفة جبال أو فلوات ، ونحو ذلك . وأما الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة ، إما في موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا ، أو يتعلق بحرب وقتال ، من ترغيب أو ترهيب ، فأما الكلام في الملائكة وصفاتها وصورها وعباداتها ، وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبها له ، وولهها إليه ، وما جرى مجرى ذلك مما تضمنه هذا الفصل على طوله ، فإنه لم يكن

معروفا عندهم على هذا التفصيل ، نعم ربما علموه جملة غير مقسمة هذا التقسيم ، ولا مرتبة هذا الترتيب ، بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم ، وأما من عنده علم من هذه المادة ، كعبد الله بن سلام وأمية بن أبي الصلت وغيرهم ، فلم تكن لهم هذه العبارة ، ولا قدروا على هذه الفصاحة ، فثبت أن هذه الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة ، لم تحصل إلا لعلي وحده)) [٢٤]، ثم أقسم مؤكدا فرادة معاني الكلام فقال((وأقسم أن هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده ، ورجف قلبه ، واستشعر عظمة الله العظيم في روعه وخلده)) [٢٥] ،ولا غرابة في أن يُفصِّل الإمام في معان غاية في الجدة وموغلة في الغيب بهذا التفصيل، إذا تذكرنا أنها مستقاة كلها من منبع اختص به وحده هو القرآن الكريم والحديث النبوي فقد (( كان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلوات، كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه وآله، لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما، وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن، وعن معاني كلامه صلى الله عليه وآله، وإذا لم يسال ابتداه النبي صلى الله عليه وآله بالتعليم والتثقيف، ولم يكنْ أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله كذلك)) [٢٦].

وعلى الرغم من أن خطب الإمام كلها تحمل على الارتجال لا يتنافى ذلك مع ما يبدو من أن الإمام ربما كان يجيل المعاني الجديدة وطرائق صياغاتها في ذهنه ، فعلى سبيل المثال في معاني المتقين روي أن الإمام تثاقل من إجابة طلب السائل – واسمه همّام – في وصف المتقين ، فقد تُؤوِّل – فيما تؤول – هذا التثاقل على أنه ترتيب للمعاني قبل إلقائها كما يصنع المتروِّي في الخطبة والقريض [٢٧].ولا ضير في ذلك طالما أن المعاني التي يعرضها تعالج بطريقة أدبية عالية الفصاحة.

ومن المعاني المبتكرة التي شكَّل منها صياغة مبتكرة قوله المشهور((لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه))[٢٨]، ونظيره(( قلب الأحمق في فيه ، ولسان العاقل في قلبه ))[٢٩] ،فقد علق عليه جامع النهج الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ) بقوله(( وهذا من المعاني العجيبة الشريفة ، والمراد به أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية ، ومؤامرة الفكرة ، والأحمق تسبق حذفات لسانه ، وفلتات كلامه ، مراجعة فكره ، ومماخضة رأيه ، فكان لسان العاقل تابع لقلبه ، وكأن قلب الأحمق تابع للسانه))[٣٠] . أما فيما يخص كتاب العهد فيمكن القول إنه الكتاب الوحيد بعد وثيقة المدينة، الذي جمع تفاصيل بناء الدولة والمجتمع على هذا النحو ، وأن كتاب عهد الإمام لمالك الأشتر إنما هو تفصيل لمعانٍ جديدة استقصيت فيها جميع الأطر العامة التي تضمنتها وثيقة المدينة التي وضعها النبي صلى الله عليه وآله .

وعلى الرغم من أنّ المعاني التي تضمنّها كتاب العهد هي معان حقيقية مقيدة للإبداع إلا أن مَلَكة أمير المؤمنين وتمكنه من اللغة مكّنتاه من الانفلات من أسر قيود الحقائق، والإتيان بصيغ إبداعية قل نظيرها، مستثمرا طاقات اللغة بأقصى مدياتها المجازية والبيانية والحقيقية ، على نحو ما يأتي[٣١]:

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضا الرعية فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة.

لاحظ التمكن من جمع مفردات( أوسط، أجمع،أعم) وتوظيفها في اقتران دقيق فللحق الأوسطية وللعدل والرضا العمومية دائما.وتوظيف التضاد بين ( الخاص) و(العام) وجمال تكرارها المبني على اقتضاء دلالي واضح.

ومنه أيضا:

وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف وأقل شكرا عند الاعطاء ، وأبطأ عذرا عند المنع ، وأضعف صبرا عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة ، وإنما عمود الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء العامة من الأمة فليكن صغوك لهم ، وميلك معهم .

ففي هذا الشاهد أشكال لغوية شتى اقتضاها المعنى، من حسن استعمال اسم التفضيل (أثقل، أقل، أكره، أسأل، أقل، أبطأ، أضعف)، إلى جمال تناقضات التضاد وعمق الاستعمال الاستعاري المغير لدلالات المعاني[٣٢] في (ملمات الدهر- عمود الدين – جماع المسلمين، العدة )، وبديع استعمال الكناية بإظهار العناية في ( صغو ، ميل ) . فضلا على التنغيم الخفيّ والظاهر في السجع، والتوازن بين قصر الجمل، وموسيقى المفردات (الرخاء-البلاء، الإنصاف- الإلحاف، الإعطاء، المنع - الدهر).

ومنها [٣٣]:

وأكثرْ مدارسة العلماء ، ومناقشة الحكماء ، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك .

فولِّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك ، وأطهرهم جيبا ، وأفضلهم حلما ، ممن يبطئ عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ، ويرأف بالضعفاء ، وينبو على الأقوياء ، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف

ثم الصقْ بذوي المروءات والأحساب ، وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة ، والسخاء والسماحة ، فإنهم جماع من الكرم ، وشعب

من العرف .

فهذه المعاني وإنْ جاءتْ كلها موضوعات حقيقية مقيدة إلا أن منشئها عليه السلام لم تأت جمله إلا بتركيب إبداعي أخّاذ، مكنه حسن توظيف طاقات البيان والمجاز بما يخدم معانيه وتوضيح حقائقها . كقوله موصيا بالرعية (( فلا تشخص همك عنهم ، ولا تُصعِّرْ خدَّك لهم . وتفقَّدْ أمور من لا يصلُ إليك منهم ، ممن تقتحمه العيون ، وتحقره الرجال ، ففرغْ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع ، فليرفعْ إليك أمورهم)) [٣٤] . حقائق المعاني إذن لا تعيق المبدعين عن الإتيان بجديد التركيب، وليس الإبداع مقصورا على معاني المجاز وحده.

الخاتمة

من البحث أستخلص ما توصلت إليه بنقاط منها :

أولا: أكد البحث أن المعاني التي حفل كتاب العهد حقائق لم تمنع من الإتيان بجديد الصياغات وابتكارها.

ثانيا: قرر البحث أن المعاني المبتكرة أدعى إلى ايجاد صياغات جديدة لها.

ثالثا: حصرت الدراسة أسلوبية المعاني في كلام الإمام علي عليه السلام في عهده بثلاثة أشكال هي الاتساع والتكثيف والابتكار.

الهوامش

١-ظ. الحيوان ، الجاحظ: ٣/ ١٣٢

٢- ديوان المتنبي:

٣-ديوان الجواهري: ١٧٧

٤- الكامل ، المبرد : ٢/ ١٥٧

٥-مقدمة الشريف الرضي في نهج البلاغة : ١/ ١١

٦- ظ. شرح نهج البلاغة: ١١/ ٤٨

٧- شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٢٥ - ٣٢٦

٨- شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٢٥ - ٣٢٦

٩- شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٢٥ - ٣٢٦

١٠-شرح نهج البلاغة: ٢/ ٩١ - ٩٢

١١-شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٣٤

١٢-شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٣٤

١٣-شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٣٤

١٤-شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٣٤

١٥-شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٣٤

١٦-شرح نهج البلاغة : ١٧/ ٣٤

١٧-ينظر كتابنا : الأثر القرآني في نهج البلاغة ، الفصل الأول منه والثاني .

١٨-نهج البلاغة : ٣/ ٨٣ - ٨٥

١٩-نهج البلاغة : ٣/ ٩٠

٢٠-الحيوان ، الجاحظ: ٣/ ١٣٢

٢١-شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٩٤

٢٢-شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٩٤

٢٣-نهر معقل : نهر بالبصرة منسوب إلى معقل بن يسار بن عبد الله المزني، من صحب النبي (ص) . ظ. معجم البلدان: ٥/ ٣٢٣

٢٤-شرح نهج البلاغة: ٦/ ٤٢٥ - ٤٢٦

٢٥-ظ.شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٣٤

٢٦-ظ. شرح نهج البلاغة: ١١/ ٤٨

٢٧-نفسه.

٢٨-شرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٥٩

٢٩-شرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٥٩

٣٠-شرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٥٩

٣١-شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٣٤

٣٢-ينظر: نظرية المعنى، مصطفى ناصف، ص٨٨.

٣٣-شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٥١

٣٤-شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٨٥

المصادر

الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠هـ-٢٥٥ هـ) ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الأولى ، مطبعة البابي الحلبي-مصر ١٣٥٦هـ-١٩٣٨م.

ديوان الجواهري ، الأعمال الكاملة (٧٠١) للشاعر محمد مهدي الجواهري – دار الحرية للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية – بغداد ٢٠٠١م.

شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي ، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، بدون تاريخ.

شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦ هـ).تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ،١٩٥٩ م .

الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٦هـ)، تحقيق: احمد محمد شاكر، مطبعة عيسى البابي-مصر ١٣٥٥هـ.

نظرية المعنى في النقد الأدبي ، الدكتور مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

- نهج البلاغة ، شرح محمد عبده، مطبعة بابل – بغداد ، ١٩٨٤م.